



من أعظم مسرحيات الأديب العالمي وليم شكسبير مسرحية بعنوان "تاجر البندقية"، وهو تاجر إيطالي يهودي يدعى شايولوك. افترض منه منافسه التاجر أنطونيو ثلاثة آلاف جنيه، لكن شايولوك اشترط في العقد بينهما شرطاً غريباً، وهو أن يقطع رطل لحم من جسد أنطونيو إذا لم يسدده المبلغ في الأجل المتفق عليه.

وقد فشل أنطونيو في التسديد في الوقت، وانتهت القصة بمحاكمة درامية أوشك فيها شايولوك على الحصول على مبتغاه من اقتطاع رطل اللحم من جسد أنطونيو، لولا أن الفتاة الذكية بورشيا تذكرت في ثوب محام، ودافعت ببراعة عن أنطونيو، حتى أنقذته من مصاص الدماء الجشع.

تذكرت مسرحية "تاجر البندقية" وأنا أتابع ما فعلته روسيا في مجلس الأمن منذ أيام. فقد استعملت حق النقض وجرت معها الاصين - بوقاحة - لتمكين السفاح بشار الأسد من الإيغال في دماء شعبه، رغم أن كل الدول الأخرى الأعضاء في مجلس الأمن صوتت لصالح القرار، ووراءها جميع الدول العربية والأوروبية، كما أعربت أكثر من مائة وعشرين دولة في العالم عن تأييدها لاتخاذ إجراءات لوقف سفاح دمشق عند حده. وقد نقل أحد أعضاء المجلس الوطني السوري عن دبلوماسي روسي قوله له: "فلتكن حرب أهلية في سوريا، ذاك شأنكم وليس شأننا".

تضاءل جريمة تاجر "البندقية" شايولوك ودمويته وجشعه أمام جريمة القيادة الروسية وجشعها ودمويتها، بشكل يجعل التاجر الإيطالي ذا القلب المتحجر رحيمًا جداً مقارنة مع تاجر البندقية الروسي فلاديمير بوتين وغلامه دميتري مدفيف.

ولو كان الدبلوماسي الروسي صادقاً مع نفسه وتجرد من نفاق الدبلوماسية لأضاف "نحن سنفعل ما في وسعنا لإشعالها حرباً أهلية في بلدكم، لنبيع بشاراً سلحاً أكثر".

لقد تصاغرت في عيني جريمة التاجر شايولوك ودمويته وجشعه أمام جريمة القيادة الروسية وجشعها ودمويتها، وبدا لي أن المقارنة تجعل التاجر الإيطالي ذا القلب المتحجر رحيمًا جداً مقارنة مع تاجر البندقية الروسي فلاديمير بوتين وغلامه دميتري مدفيف الذي يحكم من خلاله روسيا تحت غلالة شفافة من ديمقراطية الـ كي جي بي الزائفة. وهاكم ملامح من هذه المقارنة:

أولاً: لم يكن شايولوك على جشعه وحرصه "تاجر بندقية"، أي بائع سلاح لقتل البشر، وإنما سماه شكسبير تاجر البندقية نسبة إلى مدينة البندقية في إيطاليا، أما بوتين فهو تاجر بندقية بالمعنى الحرفي للكلمة، فتسويق أطنان من السلاح الروسي المتخلّف أهم عنده من أرواح الشباب السوريين الذين تحصدتهم آلة الموت الأسدية حصدًا كل يوم.

ثانياً: طالب شايولوك بـ"رطل واحد من لحم جل واحد"، بينما يطالب بوتين بأطنان من لحم السوريين، وبحار من دمائهم، مقابل بيع سلاحه الرديء، وهذا وحده يكفي ليضع العالم تاج تكريم لإنسانية تاجر البندقية الإيطالي، مقارنة مع تاجر البندقية الروسي.

ثالثاً: لم يكن بهم تاجر البندقية الإيطالي سوى المال فقط، أما تاجر البندقية الروسي فهو إلى جشعه للمال يتباكي على الأمجاد الغابرة، ويعيش أوهام الهيمنة الدولية والنفوذ السياسي، ويسعى إلى بناء سلم إلى هذه الأوهام بأشلاء العرب وعلى شواطئ بلاد العرب، بعد أن انحسرت أمجاده على تخوم بلاده.

إن تاجر البندقية الروسي فلاديمير بوتين لا يزال يتغذى على عقلية الحرب الباردة، ويحلّ بال المياه الدافئة على ضفاف البلاد العربية – ومن هنا حرص روسيا على القاعدة العسكرية في طرطوس –. وهو جاحد تماماً بمغزى الريع العربي وتأثيره على استقلال القرار السياسي في الدول العربية. فالذي يريد نفوذاً أو مكانة في بلاد العرب في المستقبل لن يكون له من منفذ إلى ذلك سوى احترام إرادة الشعوب العربية، وفك العرى مع الحكام الذين يستعبدون الشعب ويدحبونه.

ومن الواضح أن الأميركيين والفرنسيين كانوا أحسن فهماً من الروس لهذه المعادلة الجديدة التي أسفّر عن وجهها الريع العربي. فقد قبل الفرنسيون بسقوط طاغية تونس بروح رياضية، وأشاد الأميركيون بإسقاط مبارك على الملا، رغم أن خسارة الدولتين أكبر من خسارة روسيا في حالة سقوط الأسد.

الأميركيون والفرنسيون أحسن فهماً من الروس لالمعادلة الجديدة التي أسفّر عن وجهها الريع العربي، أما بوتين ورهطه وقد استعبدتهم عقلية الحرب الباردة – العتيقة –. فهم يظنون أن في وسعهم إيقاف الفجر العربي المطل.

لكن القوى الغربية أدرى بواقع المنطقة وأبعد نظراً من تاجر البندقية الروسي. ولذلك قررت أميركا وأوروبا أن ترحب بما لا تستطيع دفعه، وأن تقبل بما ليس منه بد. أما بوتين ورهطه وقد استعبدتهم عقلية الحرب الباردة – العتيقة –. فهم يظنون أن في وسعهم إيقاف الفجر العربي المطل، وحرمان شعوبنا من الحرية بدعم سفاح لم يعد له مكان أو مكانة في قلوب شعبه.

لقد تبدل الزمان العربي في بلدة سidi بوزيد التونسية منذ عام، وأدرك الأميركيون والأوربيون أن الدول العربية لن تكون أدلة لنفوذ الكبار بعد اليوم، إلا بقدر ما تستلزم مصالح شعوبها. وأصبح الأميركيون والأوربيون مستعدين لعقد جديد مع دولنا يتأسس على إرادة الشعوب لا على نزوات المستبددين، ويعوّس لعلاقات جديدة بين أنداد، بعيداً عن الصالات القديمة الممحفة. لكن تاجر البندقية الروسي جاحد بهذا التحول العظيم في نظرة الإنسان العربي لنفسه وللآخرين، وفي سعيه إلى الحرية من نير الاستبداد الداخلي والاستعباد الخارجي، وهو سعي لا رجعة عنه مهما تكن التضحيات.

ولا ننسى أن موقف تاجر البندقية الروسي فلاديمير بوتين من الريع العربي يحمل في ظلّه شيئاً من هموم الداخل، وفي الوقت الذي كان مجلس الأمن الدولي يناقش مسودة القرار العربي الأوروبي حول سوريا، كان عشرات الآلاف من المواطنين الروس يتجمعون في قلب موسكو المتجمد – أربع درجات تحت الصفر – في مظاهرات شجاعة، تسعى إلى منع بوتين من الفوز بولاية جديدة الشهر القادم.

وليس خفيّاً أن الريع العربي كان ملهمًا للشعب الروسي كما ألمّ كل الشعوب التي تعاني من الاستبداد. فعداؤه بوتين للريع العربي عداوة شخصية إلى حد بعيد، إذ هو لا يريد أن يصدر عنه ما يضفي أي شرعية على مطالب الحرية في البلاد العربية، حتى لا يضعف ذلك موقفه المتزعزع داخل روسيا.

لقد حكم بوتين روسيا اثنتي عشر عاماً رئيساً، ثم وضع غلامه مدفيف في الكرسي، وظل بجنبه رئيساً للوزراء. وهو هو بوتين

يعوداليوم حالماً باثني عشر عاماً أخرى من حكم روسيا. وهو ما يدل على هشاشة التجربة الديمقراطية الروسية، ويفضح برعها الشفاف الذي يخفي وراءه استبداداً مدقعاً. فليس غريباً أن يوالي تاجر السلاح الروسي السفاح السوري، وهمما يحملان نفس الأوهام والأحلام الدكتاتورية في زمن الحرية.

من الضروري أن تحمل الشعوب العربية رسالة لا ليس فيها إلى روسيا، وهي أن مصالحها المستقبلية في الدول العربية مرهونة بدعمها لطلعات الشعوب العربية إلى الحرية، وفك الارتباط مع بشار الأسد

إن من الضروري أن تحمل الشعوب العربية رسالة لا ليس فيها إلى روسيا، وهي أن مصالحها المستقبلية في الدول العربية مرهونة بدعمها لطلعات الشعوب العربية إلى الحرية، وفك الارتباط مع بشار الأسد. وما أحرى أن تكون الجمعة القادمة "جمعة نصرة الشعب السوري" في كل الحاضر العربي، وأن تستمر الجماعات متواлиات حتى تسحب كل الدول العربية اعترافها بسلطة الأسد، ويتم طرد سفراء الأسد وبوتين من كل العواصم العربية، ويفهم تاجر البندقية الروسي أنه أساء إلى الشعب العربي كله من المحيط إلى الخليج، وأن لذلك الإساءة ثمناً.

لقد فتح بوتين وزمرته ثغرة خطيرة في علاقات الشعوب العربية بروسيا، وهو يكادون اليوم يجثثون ما تبقى من تركيبة الشراكة القديمة التي ترجع إلى منتصف القرن العشرين. لكن الشعب الروسي سيظل شريكاً سياسياً وثقافياً وإستراتيجياً مهماً للشعوب العربية. وهو شعب يعيش بوأكير ربيع ديمقراطي يحاول بوتين ورهطه وأده في مهد.

فالشعوب العربية والشعب الروسي في الهم سواء، وواجب الطرفين السعي لنسج صلات وثيقة لا يكون السفاح بشار ولا تاجر السلاح بوتين جزءاً منها.

المصدر: الجزيرة نت

المصادر: